تعقيبات

للأستاذ أنور المعداوى

لحظات فى سجن أبى العلاء :

... ...

جلست وصاحبى نتجاذب أطراف الحديث فى نواحى الحياة المختلفة من بقاء الجنس والنزوع إلى البقاء وآراء بعض الفلاسفة فى الحياة ، وساقنا الحديث إلى أبى العلاء ، فذكرت لصاحبى قوله فى بقاء الجنس :

فليت وليداً مات ساعة وضعه ولم يرتضع من أمه النفساء !

واسترسلنا فى الحديث فذكرت قوله فى النزوع إلى عدم البقاء :

تواصل حبل النسل ما بين آدم وبينى ولم يوصل بلاى باء

وأخيراً تطرقنا إلى رأيه فى الحياة ، وحبه فى عدم البقاء ، وتشاؤمه من الدنيا ، فعرضت لقوله :

دعانى بالبقاء أخو وداد ورودك إنما تدعو علىّ

فما كان البقاء لى اختياراً لو ان الأمر موكول إلىّ

فقال صاحبى : ما هى أم صنعة له ؟ فقلت : أعمى ! فارتسمت على وجهه علامة استنكار لهذا الرأى ، وكأنه لم يرتح له ، ولم يطمئن إليه ... ولقد جئت أسألك ، وقد سبقنى إلى هذا السؤال شاعرنا الرصافى حينما خاطب الدكتور طه حسين قائلا : « لو لم يكن أبو العلاء أعمى ، فما ذا يكون رأيه فى الحياة عند ذاك » ؟ !

دلك الله إلى الطريق السوى لطلاب المعرفة الحقة ، وجعلك هادياً لمن يريد الهداية ، وأدامك ما دمت مجيباً لكل سائل .

(ف . ح)

يوسفية — العراق

سؤال الأديب العراقى الفاضل سؤال يجىء فى إبانه ... لقد قضيت لحظات فى سجن أبى العلاء قبل أن أتلقى هذه الرسالة بأيام ، وليس أحب إلىّ من أن أعود إلى أبى العلاء من حين إلى حين لأرجع إلى كثير مما قال ، ولأراجع كثيراً مما قيل فيه ، سواء أكانت المراجعة لأقوال القدامى ، أم كانت لأقوال المحدثين .

إن شخصية أبى العلاء لتعد فى رأيى أعم شخصية قلقة فى الفكر العربى كله ؛ ومن هنا يلذ لى أن أعود إليه ، كما تلذ لى العودة إلى الشخصيتين الأخريين القابلتين فى الفكر الغربى ، وأعنى بهما بودلير وليوپاردى !

إن الشخصيات القلقة تستهوينى دائماً ؛ تستهوينى لأنها مصدر خصب من مصادر الدراسة النفسية ، تلك التى تحيل الشخصية الإنسانية غرفة تشرع بتكشف بين جدرانها وتحت لمسات المبضع مكامن الداء ومنابع الانحراف ... إن هؤلاء الأعلام الثلاثة — وإن افترقوا فى الوطن والدين واللغة — إلا أنهم يلتقون فى ميدان واحد توجههم فيه نزعة نفسية واحدة : هى القلق ... والقلق — كما يقول صديق الأستاذ راجى الراعى — هو أبرز صفحة فى كتاب البقرية !

لو قال الباحثون عن أبى العلاء إنه إنسان قلق لعبروا عن الواقع أدق التعبير ، ولأحاطوا بكل جانب من جوانب شخصيته بهذه الكلمة الواحدة ، ولكنهم ركزوا كل عنايتهم فى جانب واحد انتهوا منه إلى حكم عام ما لبث أن استقر فى الأذهان واطمأنت إليه النفوس ؛ هذا الحكم العام محوره التشاؤم فى شخصية الرجل وفى فلسفته على حد سواء !

من الخطأ — فى رأيى — أن ينسب الباحثون أبا العلاء إلى نزعة نفسية بعينها ليتفرد بها وليقف عندها لا يكاد يتعداها إلى غيرها من النزعات ؛ ذلك لأن أبا العلاء قد مال إلى التفاؤل كما مال إلى التشاؤم ، ونصح بالإقبال على الحياة كما نصح بالإعراض عن الحياة ، وآمن بالبعث كما أنكر إمكانه بهذا البعث ، وأوصى بالزهد فى نعيم الدنيا كما أوصى بالإغراق فى هذا النعيم ، ونادى بفكرة الزواج والنسل كما نادى بنبذ هذه الفكرة مقدماً من نفسه مثالا لهذا الحرمان !

أبو العلاء إذن لم تكن له « لاءة » واحدة « يسلن » فيها من رأى واحد تتميز به شخصيته الفلسفية والإنسانية ، ولكنه كان أشبه بالتاجر الذى يسلن كل يوم من « صنف » جديد من أصناف « بضاعته » عقب وروده بلحظات !

نعم ، فلم يكن أبو العلاء إلا تاجر آراء على التحقيق ... آراء

فلسفية مختلفة متناقضة لا تستطيع أن تصدق رأياً منها لتكذب الآخر ، فإما أن تقبلها جميعاً ، وإما أن ترفضها جميعاً ، أما أن تقف منها عند رأى بعينه لتخرج منه بلافتة كبرى هى « التشاؤم » فذلك أمر تثور عليه فلسفة أبى العلاء كل الثورة ، لأنها فلسفة الإثبات هنا وفلسفة الإنكار هناك ! إن وجه الشبه بين تاجر البضائع وتاجر الآراء هو أنك لا تستطيع أن تنسب الأول إلى صنف واحد مما يقدمه إلى الشارين ، ولا أن تنسب الثانى إلى رأى واحد مما يقدمه إلى المريدين ؛ وإنما تستطيع أن تنسب الأول إلى أصناف بضائعه كلها فتقول عنه مثلا إنه يبيع « البقالة » ، وأن تنسب الثانى إلى مجموعة آرائه كلها فتقول عنه مثلا إنه يبيع « القلق » ! وهكذا كان أبو العلاء فى حقيقة شخصيته وحقيقة فلسفته ... تاجر آراء ... فيها التشاؤم وفيها التفاؤل ، وفيها الإلحاد وفيها الإيمان ، وفيها الإقبال وفيها الإعراض ، وفيها الهدم وفيها البناء ، وكل تلك السطور المتناقضة يمكنك أن تضمها تحت عنوان كبير مكون من كلمة واحدة هى « القلق » !

هذا القلق هو الظاهرة الكبرى فى شخصية أبى العلاء ؛ فإذا أراد الدارسون أن يقتفوا آثاره ليصلوا إلى أسبابه ، فليس أمامهم غير حقيقة واحدة ، هى أن التذبذب الفكرية ما هى إلا انعكاس مباشر للتذبذب النفسية ... وهذه هى المرحلة الثانية التى تدفع بهم إلى الباب الأخير ليفتح على مصراعيه !

ولنا بعد ذلك أن نسأل : ما هو المفتاح الأصيل الذى نعالج به هذا الباب لنضع أيدينا على سر تلك التذبذب التى وجهت العقلية العلائية هذه الوجهة التى لا تطمئن إلى رأى ولا تستقر على حال ؟ أهو العمى ؟ أهو تلك الآفة التى أصيب بها وحرمته نعمة الضياء وردد وقعها على نفسه فى كثير من شعره ؟ !

إن العمى قد يبعث على الألم ، وقد يدفع إلى الشكوى ، وقد يحض على التشاؤم وكراهية الحياة ، ولكنه إنما سبب هذا كله لأبى العلاء ، فإن منطق الشعور لا يرتضى أن يخرج أبو العلا من دائرة الألم والشكوى والتشاؤم ، فما بال الرجل قد خرج من هذه الدائرة وتذبذب بين الأمر ونقيضه ، وانحرف مرة نحو اليمين ومرة أخرى نحو الشمال ؟ !

ونعرض للمشكلة من زاوية أخرى فنقول : إذا مال الباحثون إلى الأخذ بهذا التفسير الذى يلتمس فى الآفة الجسمية سر النظرة إلى الحياة فهو تفسير غير مقبول ... فما أكثر المكفوفين الذين امتلأت حياتهم بالنور ، وابتلأت نفوسهم بالرضا ، ونظروا إلى الدنيا من خلال منظار أبيض يحيل الدمعة فى عيونهم فرحة وابتسامة ، وما أكثر المبصرين الذين نظروا إلى الدنيا من خلال منظار أسود فقضوا كل أيام الحياة وهم يتخبطون فى الظلام !

ليست الآفة الجسمية إذن هى مصدر هذا القلق الذى أقض مضاجع الفكر فى شخصية أبى العلاء ، ولكنه فيما أعتقد شىء آخر انتشر على ضوئه الشكاة دون أن تحمل النفسية العلائية ما لا تطيق ... إنك لو رحت تبحث عن سر القلق والاطمئنان فى كل شخصية إنسانية لما وجدته ممثلا إلا فى كلتين : هما فراغ الحياة ، وامتلاء الحياة !

نعم ، وهذا هو المفتاح ... المفتاح النفسى البسيط الذى لا غموض فيه ولا تعقيد ... لو فرغت الحياة عند المبصر وغير المبصر لغدت فى رأى الشعور وهى مأساة تحفل باللوعة والألم والعذاب ، ولغدا الفكر الثابت المستقر وهو نهب لزلزلة الرياح والأعاصير !

ولو امتلأت الحياة عند المبصر وغير المبصر لأصبحت فى رأى الشعور أملا كبيراً تتبختر تحت أشعته المتوهجة قطرات الهم والأسى وتغر أشباح الحرمان !

الفراغ فى حياة أبى العلاء ولا شىء غير الفراغ ، وعلى هديه نلتمس العلة الأصيلة لتلك التذبذب النفسية ممثلة فى هذه التذبذب الفكرية !

ولنا بعد ذلك أن نسأل : أى لون من ألوان الفراغ كان يشكو أبو العلاء ؟

إنها ثلاثة ألوان : فراغ النفس ، وفراغ القلب ، وفراغ الجسد ... وحق أن نردها جميعاً إلى الحرمان ! ففى أبى العلاء كانت تشكو الحرمان من العطف ، وقلب أبى العلاء كان يشكو الحرمان من العاطفة ، وجسد أبى العلاء كان يشكو الحرمان من المرأة !

وقفنا طويلا عند هذا الحرمان الأخير ، فهو مصدر الحرمان كله ، ومركز الفراغ كله ، وعلة هذا القلق الذى وجه أبا العلاء ألف وجهة ، وحيره بين ألف رأى وعقيدة ، وقذف بعقله إلى

ألف دوب من دروب الفكر ، حيث يتجلى التناقض والتضارب والاختلاف !

هذا الجدب العاطفي في القلب الإنساني ، وهذا الكبت الطويل العنيف للغريزة الجنسية ، هما في رأيي — ولا شيء غيرهما — مركبا النقص الخطيران في شخصية أبي العلاء ، ولا حاجة بنا إلى الحديث عن مركب النقص وأثره في توجيه العقول والأفكار !

لقد سألني الأديب العراقي الفاضل : لو لم يكن أبو العلاء أعمى فما ذا يكون رأيه في الحياة عند ذاك !

ترى أيحتاج بعد هذه الشراسة النفسية إلى جواب ؟ !

بعض الرسائل من هنيئة البريد :

أشكر للأديبة الفاضلة التي كتبت إليّ مهنئة بشهر الصوم ، أشكر لها هذه العاطفة النبيلة التي حملتها إليّ سطور وكلمات ، أما من سؤالها إذا كنت مسلماً أو مسيحياً فأنا مسلم والحمد لله .

ولو رجعت إلى بعض أعداد « الرسالة » لتأكدت من صدق هذه الحقيقة ! أما من قضيتها الأدبية فأرجو أن تثق كل الثقة بأنني سعى بها كل العناية ، وسأبذل كل ما في وسعي لأقنع « صاحب الأمر » بعدالة هذه القضية . وأنتقل إلى الرسالة الثانية التي تلقيتها منذ أيام من « دمشق » حيث يقول مرسلها الأديب الفاضل عزة عثمان : « أود أن أتقدم بواجب الشكر وعظيم الامتنان ، لما أفدته من أبحاثك حول (الفن والحياة) ... لقد تفهمت تماماً — على الرغم مما قاله الدكتور طه حسين — كل معنى قصدت إليه ، وقد توارد على فكري وأنا أقرأ ردك على كلتي الأستاذين طه والحكيم ، ما يقول الأستاذ رامي الرامي : « جميلة هي الوجبة المتحمة الهائجة وأجمل منها الصخرة التي ترد ها ! » يا صديقي ، أشكر لك هذه التحية الكريمة وأقول لك رداً على الأسئلة التي وجهتها إليّ : إن الترجمة القديمة خير من الترجمة الجديدة ، خير منها من جميع الوجوه التي عرضت لها في رسالتك ، وأكتفي بهذا القدر من الإجابة دون التعرض للأسماء حتى لا يحرج بعض الناس ! أما من رجائك في أن أترجم لقراء الرسالة — ولو مرة في كل شهرين — فصلاً أو قصيدة أو قصة أختارها مما بين يدي من نتاج كتاب الغرب ، فإني أجيبك على هذا الرجاء بأنني لا أميل كثيراً إلى الترجمة لأنها ميدان لا تظهر فيه الشخصية الفكرية كما تحب أن تظهر ، ولعلك تلمس من كتاباتي أنني إذا قرأت فصلاً من الفصول في الأدب الغربي أو الأدب العربي حرصت كل الحرص على أن أقف منه موقف العارض والمحلل والناقد ، وأظنك توافقني على أن الترجمة لا تحقق لي شيئاً من هذا الشغف الذي فطرت عليه ! ومع ذلك فأنا أرجو أن أحقق هذه الرغبة يوماً لأنها رغبة صديق .

ولا بد من الشكر مرة ثالثة لصاحب الرسالة الثالثة ، وهو الأديب الفاضل محمد دوبلة من « شرق الأردن » ... يا صديقي إنني أرحب بصداقتك وبكل صداقة يعطرها الخلق والوفاء ، وإذا كانت « من الأعماق » و « من وراء الأبد » قد ربطتا بيني وبين كثير من القراء برباط المودة الروحية المتسامية فكم أود أن أكثر من هذا اللون الوجداني لازدياد عدد الأصدقاء المتذوقين .

أما الرسالة الرابعة فهي من الأديب الفاضل محمد تميم بمصر الجديدة يقول الأديب الفاضل : « أرسلت إليكم كتاباً طلبت فيه شرح الخطوط الفنية التي ارتسم على ضوئها إنتاج الأستاذ سهيل إدريس القصاص اللبناني في العدد (٨٣٤) من « الرسالة » ، واليوم أعود فأطالبكم ثانية بهذا الشرح ، وأرجو أن يكون وافياً موضحاً بالأمثلة من كتاب القصة عندنا وفي الغرب » . إن ردي على هذه الرغبة هو أن بين يدي كثيراً من كتب الأدباء في انتظار النقد وكثيراً من أسئلة القراء في انتظار الإجابة ، فإذا أرجأت التعقيب بعض الوقت على هذا الموضوع فأرجو المعذرة !

كتاب مدير للأستاذ أحمد الصاوي محمد :

لست أدري كيف أشكر للصديق الأثير الأستاذ أحمد الصاوي محمد هذه التحفة الروحية الخالصة التي غمرني بفيضها حين أهدى إليّ كتابه الجديد « بنات » ... إن الذين يعرفون الصاوي كما أعرفه ، يعرفون فيه إنساناً يضع قلبه على يديه ليقدمه إلى الناس في غلاف من سحر العاطفة ، ومن هنا كان الصاوي في أكثر كتاباته دقات قلب تسبق وثبات قلم ، وبخاصة في هذا الكتاب الجديد الذي كنت أود أن أقدمه إلى القراء في هذا العدد لولا ضيق النطاق ، فإلى العدد القادم حيث أضعه على مشرحة النقد والتحليل.

أنور المعداوي